

نيروز ساتيك*

هل يمكن تقسيم دول المشرق العربي؟

تناقش هذه الورقة امكانية تقسيم دول المشرق العربي على خلفية حالة الاضطراب الكبيرة التي يشهدها الإقليم. ترى الورقة أن المؤشرات الميدانية والسياسية في سورية والعراق تدل على أن الأكراد بدأوا يستعيدون وحدتهم ووعيهم القومي. فهم الآن الطرف الوحيد في المشرق العربي الذي يقا تل على أسس قومية وعرقية. ومما يسهل عليهم إنشاء كيان كردي قابل للحياة، على الصعيد المحلي، كونهم يمتلكون مقومات اقتصادية وسياسية وبشرية وعسكرية كبيرة. ومن غير اعتراف دولي لا تحظى الدول الجديدة بشرعية دولية. غير أن الاعتراف الدولي بكردستان يبدو سلساً إلى حد ما. أما على الصعيد الإقليمي فإن الاعتراف بها سيكون في غاية التعقيد. وترى الورقة أنه من غير المرجح إنشاء كيانات طائفية في سورية والعراق، في الظروف المحلية والدولية الحالية. فالعنف الطائفي ليس سوى توترات اجتماعية نتيجة للخلل في توزيع الثروة والسلطة، ونتيجة للاستبداد السياسي. ولذلك لا تندرج الجماعات المتصارعة في إطار النزعات الانفصالية، لكنّها قابلة للتحوّل إلى قوميات طائفية بفعل التدخلات والرؤى الخارجية؛ (الاستشراق الغربي، والدور الروسي الجديد ومسألة الأقليات، والمذهبية السياسية الإقليمية).

* باحث في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

مقدمة

إقليم كردستان العراق مسعود البارزاني في جلسة أمام برلمان إقليم "كردستان العراق" في ٣ تموز / يوليو ٢٠١٤ انتهاء مفاعيل المادة ١٤٠ من الدستور العراقي الخاصة بالمناطق المتنازع عليها، كما أن القوات الكردية لن تنسحب من المناطق التي جرى السيطرة عليها لأنها مناطق كردية^(٥)، فهناك واقع جديد على الأرض قد طرأ وفرض نفسه، ومسألة استقلال إقليم كردستان بـ "كامل حدوده التاريخية" متوقفة على بعض الإجراءات الخاصة بالإعداد لإجراء استفتاء عام في الإقليم والمناطق المتنازع عليها^(٦).

أجاز الرئيس الأمريكي باراك أوباما في ٨ آب / أغسطس ٢٠١٤ توجيه ضربات عسكرية محددة الأهداف في العراق^(٧). وقرّر وزراء خارجية الاتحاد الأوروبي في ١٥ آب / أغسطس ٢٠١٤ تسليح قوات البشمركة الكردية في العراق بأسلحة متطورة^(٨)، والتنسيق مع القوات الكردية في سورية. فاستطاعت قوات "حمية الشعب الكردي" منع التنظيم من السيطرة على مدينة عين العرب "كوباني" في سورية، وما زالت تتقدم نحو مدينة الرقة.

وعليه، تعاظمت القوة العسكرية والسياسية للأكراد، واستمر الاحتقان الطائفي الفئوي بين المكونات الاجتماعية في المشرق العربي، لعدم زوال الأسباب التي أدت إلى وجوده. تحاول هذه الورقة أن تناقش قابلية الدول المركزية في المشرق العربي، سورية والعراق، للتقسيم وفقاً لثلاثة عوامل تعدها مؤثرة في التقسيم مستمدة من التجربة التاريخية لنشوء الدولة الحديثة؛ وهي: بنية النظام الدولي، والمستوى الإقليمي، والدولة الوطنية ذاتها. وهذا لا يعني أن هذه المستويات، تحفّز على تقسيم الدول، بل قد تكون مثبطة، وإثماً هي المحددات الأساسية لنشوء دولة جديدة في أي منطقة جغرافية في العالم.

لم تتناول الأدبيات العربية أفكار تقسيم الدول العربية منذ نشوء عهد الدولة الوطنية، بل كانت تركز على مسائل الاندماج العربي وقضايا العروبة. ولم تظهر تلك الأطروحات إلا في حالات قليلة مثل العراق - شمال العراق، والسودان - جنوب السودان، ولبنان خلال الحرب الأهلية في السبعينيات والثمانينيات. لكن، تكاثرت هذه الأدبيات مع الاحتلال الأمريكي للعراق ٢٠٠٣، حيث دخل العراق في حالة اقتتال أهلي أخذت تعبيرات طائفية وإثنية، وارتسمت حدوداً في بعض المناطق تميز بين العراقيين أنفسهم على أسس فرعية وبخاصة الإثنية منها. كان شمال العراق أكبر تجلٍ لتلك الانقسامات، والذي أصبح يتمتع بالاستقلال الذاتي رسمياً تحت مسمى "كردستان العراق". ولأن الثورات العربية مطلع عام ٢٠١١ هي هبات شعبية محلية وطنية، كان لا بد لها أن تعكس واقع البنى الاجتماعية والتقليدية للشعوب العربية في دول المشرق العربي^(٩)، بما يتضمنه التراث العربي من حداثة وتخلّف. التحقت سورية (قلب المشرق العربي) بالثورات العربية، ومن ثمّ تحوّلت إلى ساحة لصراعات مسلحة تختلط فيها أبعاد اجتماعية وسياسية وإقليمية، وارتسمت فيها أماكن معزولة على خلفيات طائفية في العديد من المناطق السورية، وخضعت المناطق ذات الغالبية الكردية لإدارة قوى مسلحة كردية، وشكّل فيها مجلس إدارة حكم ذاتي.

سيطر تنظيم "الدولة الإسلامية في العراق والشام" على مدينة الموصل في العراق في ١٠ حزيران / يونيو ٢٠١٤^(١٠)، وأزال مقاتليه الحدود بين سورية والعراق^(١١). كما انسحب الجيش العراقي من مدينة كركوك بفعل تقدّم تنظيم الدولة، ما دفع قوات البشمركة الكردية إلى السيطرة التامة على المدينة في ١٢ حزيران / يونيو ٢٠١٤^(١٢). حينها أعلن رئيس

١ تختلف الأدبيات العربية في تحديد مفهوم المشرق العربي، إذ يكتفي بعضها بعدها بلاد الشام والعراق، بينما يذهب بعضها إلى ضمّ مصر والخليج العربي. لكن المقالة ستتناول دولتي سورية والعراق فقط كونهما ساحتي الصراع المركزيتين في المشرق العربي. ونستثنى دراسة لبنان في هذه الدراسة لأنه بلد طرفي في المشرق العربي وصغير من الناحية الجغرافية.

٢ "أهي سياسات المالكي وحساباته الخاطئة أم أنها الدولة الإسلامية في العراق والشام؟"، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٤/٦/١٥، شوهدي في ٢٠١٤/٨/١٧، على الرابط: <http://www.dohainstitute.org/release/7c469442-096c-4a5b-9fab-1285387aea17>

٣ مشرق عباس، "داعش" يسيطر على الموصل ويزيل الحدود مع سورية"، الحياة، ٢٠١٤/٦/١١، شوهدي في ٢٠١٤/٨/١٧، على الرابط:

<http://goo.gl/odWSWe>

٤ "الأزمة العراقية: قوات البشمركة الكردية تقول إنها تسيطر على كركوك بعد انسحاب الجيش"، بي بي سي العربية، ٢٠١٤/٦/١٢، شوهدي في ٢٠١٤/٨/١٧، على الرابط: http://www.bbc.co.uk/arabic/middleeast/2014/06/140612_iraq_isis_army_developments.shtml

٥ زيدان الربيعي، "السعودية تنشر ٣٠ ألف جندي على الحدود البرزاني يضع أكراد العراق على طريق الانفصال"، صحيفة الخليج، ٢٠١٤/٧/٤، شوهدي في ٢٠١٤/٨/١٧، على الرابط: <http://www.alkhaleej.ae/alkhaleej/page/0420e7fd-ffae-4b70-b26c-9cad18aa2e4d>

٦ "إقليم كردستان العراق... هل هي سياسة فرض الأمر الواقع؟"، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٤/٧/١٥، شوهدي في ٢٠١٤/٨/١٧، على الرابط: <http://www.dohainstitute.org/release/374ff388-00f9-4db0-bb21-627c3513182a>

٧ "أوباما يجيز توجيه ضربات عسكرية محددة الأهداف في العراق"، العربي الجديد، ٢٠١٤/٨/٨، شوهدي في ٢٠١٤/٨/١٧، على الرابط:

<http://www.alaraby.co.uk/flashnews/76cfa60c-38e3-4119-b05f-04dd922f43d5>

٨ "الاتحاد الأوروبي يقرر تسليح الأكراد"، الحياة، ٢٠١٤/٨/١٦، شوهدي في ٢٠١٤/٨/١٧، على الرابط:

<http://www.alhayat.com/Articles/4147602>

بنية النظام الدولي

في العديد من النقاط تحت مسميات مختلفة أشارت إلى تراجع في الدور الأمريكي في العالم. بينما تمسك قسم من الباحثين وبخاصة الواقعيين منهم بفرضية أنَّ الولايات المتحدة ما زالت القوة الأعظم في النظام الدولي كونها الأقوى عسكريًا في العالم. تشير التطورات الدولية منذ عام ٢٠٠٨ إلى اختلاف في المشهد الدولي، فقد فصلت روسيا إقليمي أبخازيا وأوسيتيا الجنوبية عن جورجيا، وضمت شبه جزيرة القرم إلى أراضيها. وفي الشرق الآسيوي، مازالت الولايات المتحدة تتبع سياسة تطويق الصين واحتوائها بأحلاف أو تفاهات عسكرية مع الدول المحيطة بها.

إنَّ التفوق العسكري والاقتصادي والعلمي والتكنولوجي الأمريكي، وقدرة الدول الصاعدة في النظام الدولي على الدفاع عن مصالحها الوطنية، يدفعاننا إلى توصيف بنية النظام الدولي بأنه نظام أحادي القطبية تنزعه الولايات المتحدة الأمريكية، لكن الدول الصاعدة فيه أصبحت قادرة على الدفاع عن مصالحها الوطنية في مناطق أمنها القومي^(١٢). قد تكون أوكرانيا إحدى أهمِّ ساحات الصراعات الدولية التي شرحت واقع بنية النظام الدولي، حيث لم تفهم النخبة الروسية المعارضة أنَّ روسيا أصبحت في مكانة دولية، تستطيع فيها الدفاع عن مصالحها القومية. وكذلك الحكومة السابقة الموالية لروسيا، أقصت المعارضة عن الحكم، واستقوت بتحالفها مع روسيا، وتجاهلت المصالح الغربية. وهذا ما يقودنا إلى ما شرحه كينيث والتز "الدول التي لا تفهم بنية النظام الدولي، تخسر استقلالها أو تتعرض للأذى على أقل تقدير". فخسرت أوكرانيا شبه جزيرة القرم، ودخلت البلاد في حالة من الاحتراب الأهلي.

وبناءً عليه، هل للولايات المتحدة الأمريكية وحلفائها الغربيين مصلحة في تقسيم المشرق العربي؟ وهل يقع المشرق العربي في مناطق الأمن القومي الروسي^(١٣)؟

تأثر الاستشراق الأمريكي بالاستشراق الأوروبي، والذي يقوم على المركزية الأوروبية في رسم تاريخ الآخرين وتحليله وفقًا للمعطيات الأوروبية، وإن تميز عنه في جوهره وأدبياته. أنتجت الأدبيات الأمريكية ومصالحها الإستراتيجية في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية (ضمان إمدادات

يشير مفهوم النظام الدولي إلى التفاعلات والأنشطة السياسية الدولية التي ينتج منها بروز أنماط مختلفة ونماذج متباينة من العلاقات التي تركز على أطر تنظيمية وهياكل مؤسسية معينة، وقواعد سلوكية دولية محددة، وهي القواعد التي يمكن أن تتطور مع الوقت وفقًا لما تقتضي به معطيات الواقع، وتفرضه متغيرات الظروف المتعلقة بهيكل القوة والسلطة والتأثير وأنواع الصراعات وطرق حلها التي يستخدمها اللاعبون الدوليون من أجل تحقيق مصالحهم^(٩). وعليه، يساعد النظام الدولي على ظهور دول جديدة في المناطق الجغرافية ذات القابلية للتغيير في نظامها الإقليمي، لقدرة الدول الفاعلة في النظام الدولي ذات المصلحة على التأثير في مجريات الصراع السياسي في تلك المنطقة. ولا يستكمل الكيان الجديد مقوماته بوصفه دولة، إن لم يحصل على اعتراف الدول الأخرى.

رُكزت نظرية الواقعية الجديدة على بنية النظام الدولي بوصفه أهم مستوى من مستويات التحليل في العلاقات الدولية. ويرى كينيث والتز - منظر الواقعية الجديدة - أنَّ موازين القوى العالمية هي التي تحدد بنية النظام الدولي، والذي سيكون نظام مساعدة ذاتية للفاعلين الدوليين الآخرين في توجيه سياساتهم الخارجية. أما الدول التي لا تتجارب مع معطيات بنية النظام الدولي، فإنها قد تفقد استقلالها، أو تتغير حدودها، أو تتعرض للأذى على أقل تقدير^(١٠).

ظهرت أطروحات نهاية نظام الأحادي القطبية مع عدم نجاح إدارة الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش في فرض الأمن والاستقرار في العراق وأفغانستان واستعادة روسيا قوتها على الدفاع عن مصالحها الوطنية في دول الجوار القريب منها. وبينما ضربت الأزمة الاقتصادية العالمية في عام ٢٠٠٨ التحالف الغربي، استمر الشرق الآسيوي يحقق نموًا اقتصاديًا مطردًا. بدأ تلك الأطروحات الباحث الأمريكي ريتشارد هاس في مقالته في فورين أفييرز Foreign Affairs في عام ٢٠٠٨ بما أسماه "عالم اللاقطبية"^(١١)، وقد اتفق معه بعض من الباحثين الغربيين

٩ جيمس دورتي وروبرت بالتسغراف، النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية، وليد عبد الحي (مترجم)، (الكويت: كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، ١٩٨٥)، ص ١١٦.

١٠ كريس براون، فهم العلاقات الدولية، ط ١ (دبي: مركز الخليج للأبحاث، ٢٠٠٤)، ص ٥٤ - ٥٥.

11 Richard N. Haass, "The Age of Nonpolarity What Will Follow U.S. Dominance," *Foreign Affairs*, May/June 2008. at: <http://www.foreignaffairs.com/articles/63397/richard-n-haass/the-age-of-nonpolarity>

١٢ عزمي بشارة، أن تكون عربيًا في أيامنا، ط ٢ (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٠)، ص ٩٣، ٨٥.

١٣ جرى اختيار روسيا من الدول الصاعدة في النظام الدولي، لامتلاكها أدوات التأثير في المشرق العربي أكثر من كل القوى الأخرى، كالصين مثلاً.

الإقصائية، بخاصة بعد سيطرة تنظيم "الدولة الإسلامية في العراق والشام" على الموصل.

وفي المجمل، حاولت الولايات المتحدة أن تحافظ على مؤسسات الدولة المركزية في سورية والعراق (بعد أن تعلمت من درس العراق في ٢٠٠٣) مع محاولات استبدال الشخصيات السياسية فقط، وذلك حتى تضمن استقرار المنطقة، وعدم فسخ المجال أمام الحركات الجهادية للتمدد. لكن خطابها كان استشرافيًا، يُعرّف العراقيين والسوريين على أنهم "سنة وشيعة وكرد"^(١٦)، يتصارعون منذ الأزل. وتختصر بذلك الولايات المتحدة كلّ الأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية لأزمات سورية والعراق بالأبعاد الدينية والإثنية^(١٧)، وإن وجدت هذه الأبعاد في أزماتهم، لكنها ليست الوحيدة.

إن كانت الولايات المتحدة الأميركية ترغب في الحفاظ على شكل الدول المركزية حاليًا، فسلوكها الاستشرافي، وسياساتها في المشرق العربي، سوف يؤديان إلى مأسسة هويات متناحرة في إطار الدولة أو الكيان الواحد. ومثلما صاغت المصالح والإستراتيجيات الأميركية مصطلح الشرق الأوسط، بوصفه نظامًا إقليميًا فرعيًا من النظام الدولي^(١٨)، يمكن إعادة صوغه على أسس مذهبية وإثنية^(١٩)، إذا ما اقتضت المصالح الأميركية ذلك.

عدّلت روسيا وثيقتها في السياسة الخارجية الروسية في شباط / فبراير ٢٠١٣ عن وثيقتها السابقة المعتمدة في عام ٢٠٠٠، لتأخذ في الحسبان المتغيرات الدولية وإعادة توزيع توازن القوى في العالم، والأزمة المالية

النفط، وأمن إسرائيل، والحدّ من النفوذ الشيوعي) ظهور مصطلح الشرق الأوسط بدلًا من المشرق العربي تدريجيًا. وتحوّل بذلك المشرق العربي إلى نظام إقليمي فرعي من النظام الدولي، له مراكز بحثية خاصة به، ومختصون غربيون في منطقة "الشرق الأوسط"^(٢٠).

ازداد الاستشراف الأميركي تأثرًا بالاستشراف الأوروبي، بخاصة بعد أحداث ١١ أيلول / سبتمبر ٢٠٠١، فصاغت الولايات المتحدة الأميركية وحلفاؤها الغربيون رؤاهم الاستشرافية للمجتمعات العربية في تشكيل النظام العراقي الجديد بعد احتلال العراق ٢٠٠٣. فأنجبت الديمقراطية الغربية في المشرق العربي، "ديمقراطية الطوائف والإثنيات"، بما يسمى "الديمقراطية التوافقية"^(٢١)، فكان النظام السياسي العراقي الجديد قائمًا على المحاصصة الطائفية والإثنية.

”

مثلما صاغت المصالح والإستراتيجيات الأميركية مصطلح الشرق الأوسط، بوصفه نظامًا إقليميًا فرعيًا من النظام الدولي، يمكن إعادة صوغه على أسس مذهبية وإثنية، إذا ما اقتضت المصالح الأميركية ذلك

“

تعاملت الولايات المتحدة الأميركية مع الثورات والانقلابات في المشرق العربي التي تطالب بالحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية وعدم التهميش والمشاركة السياسية، وفقًا لمصالحها الوطنية وتفاهماتها الدولية في المشرق العربي. فقد حافظت الولايات المتحدة الأميركية في سورية على نوع من التوازن في موقفها بين القوى الإقليمية الفاعلة، حيث تركت ميزان القوى الإقليمي الذي تشكّل على الساحة السورية، يستثمر صراعات الأطراف المحلية السورية، دون انحيازها ميدانيًا لأيّ جهة. بينما أزاحت بالتفاهم الضمني مع إيران رئيس الوزراء العراقي السابق نوري المالكي عن رئاسة الحكومة العراقية، بعد أن أصبح من الاستحالة للمجتمعات الأهلية في مدن وقرى وسط العراق وغربه التعايش مع سياساته

١٦ انظر مثلًا تصريحات نائب الرئيس الأميركي جو بايدن بأنّ الولايات المتحدة مستعدة لمساعدة العراق على إقامة نظام فيدرالي بعيدًا عن مركزية بغداد: "Biden: U.S. would help Iraq pursue federal system," *Politico*, 22/8/2014; at: <http://www.politico.com/story/2014/08/biden-us-would-help-iraq-pursue-federal-system-110282.html>

١٧ من الأمثلة على ذلك، وهي كثيرة، يُعرّف أوباما الدول العربية التي تشارك في التحالف الدولي ضد تنظيم الدولة الإسلامية بالدول "السنية". انظر تصريحات أوباما خلال الإعلان عن تشكيل التحالف الدولي: "أوباما يعلن تحالفًا دوليًا لمواجهة 'داعش' يستثني إيران"، *العربي الجديد*، ٢٠١٤/٩/٥، شوهد في ٢٠١٥/١/٢٠، على الرابط: <http://www.alaraby.co.uk/politics/32ea2512-19bd-4ad4-984a-d2d2b2cdeb767>

١٨ نعو.

١٩ كتب مساعد وزير الخارجية الأميركية الأسبق كريستوفر ر. هل مقالة في بروجيكت سينديكيت ونشرها موقع الجزيرة نت في ١٣ آب / أغسطس ٢٠١٤، رأى فيها أنّ السنة أقلية في العراق والشيعة أكثرية، وعندما كانت "الأقلية" تحكم كانت تحارب الطائفية لأنها أقلية، وقد اختبأت تحت حكم البعث. كما أنّ الدولة العربية حاليًا قد انهارت أو على وشك الانهيار، إذ لا معنى لأن يكون المواطن في المشرق العربي عراقيًا أو سوريًا أو مينيًا أو لبنانيًا، ولا بدّ من اسم مركب عراقي سني، أو سوري علوي... كما أنه لا يوجد عراقي يصوّت لشخص من غير طائفته. هذه أفكار تزور التاريخ العربي أو جاهلة به، تحمل أفكارًا مسيقة بعيون غربية عن المشرق العربي. وهي قضايا من السهل على أيّ باحث أومؤرخ عربي تفنيدها، انظر مقالة: كريستوفر ر. هل، "نهاية الدولة العربية"، *الجزيرة نت*، ٢٠١٤/٨/١٣، على الرابط: <http://goo.gl/0uG97i>

١٤ عبد الفتاح نعوم، "مساهمة الاستشراف الأنغلو - أمريكي في صعود دراسة المناطق"، *مجلة تبين*، المجلد الثالث، العدد ٩، (٢٠١٤)، ص ٧ - ٢٨.

١٥ للتوسع في مفهوم الديمقراطية التوافقية يمكن الرجوع في ذلك لمنظرها: أرنت ليبهارت، *الديمقراطية التوافقية في مجتمع متعدد*، حسني زينة (مترجم)، (بغداد/بيروت: معهد الدراسات الاستراتيجية، ٢٠٠٦)؛ وللنقاش حولها في الحالة العربية، انظر: أحمد بيضون، لبنان: الإصلاح المردود والخراب المنشود (بيروت: دار الساقي، ٢٠١٢).

من النفوذ التركي في المشرق العربي حتى لا تتعاظم قوة تركيا في النظام الدولي. وكذلك يُنظر المفكرون الروس الأوراسيون الساعون إلى إقامة الاتحاد الأوراسي^(٢٤) لضرورة تمجيد "المسيحية الأرثوذكسية" عنصرًا جوهريًا من عناصر الهوية الأوراسية التي يكون فيها للقومية الروسية طابع متروبولي في بناء الاتحاد الأوراسي^(٢٥). ولذلك سنجد روسيا هي من أكثر الدول حديثًا عن حقوق "الأقليات"، وضرورة حمايتها في سورية، والتخوف من وصول الإسلاميين إلى السلطة في سورية، وباقي دول الثورات العربية^(٢٦).

٢٤ بدأ العمل على هذا المشروع عمليًا في ٥ تموز/يوليو ٢٠١٠ بتوقيع إعلان يفصل الاتحاد الجمركي بين روسيا وبيلاروسيا وكازاخستان. ويُستكمل العمل حاليًا على إنجاز المشروع من خلال لجنة شُكّلت في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠١١ بعد لقاء بين قادة الاتحاد الجمركي لتوقيع وثيقة "إعلان التكامل الاقتصادي الأوراسي" واتفاقية تنظيم عمل "اللجنة الاقتصادية الأوراسية". وأصبحت معاهدة الاتحاد الاقتصادي الأوراسي سارية المفعول في ١ كانون الثاني/يناير ٢٠١٥. وفي ٢ كانون الثاني/يناير ٢٠١٥ انضمت أرمينيا إلى الاتحاد الأوراسي رسميًا. وتتهيأ قيرغيزستان للانضمام إليه.

٢٥ لاحظ مثلًا زيارة الرئيس الروسي بوتين موقع عمادة السيد المسيح عليه السلام (المغطس) خلال زيارته الأردن في عام ٢٠٠٧، جرى الاتفاق خلالها على بناء بيت ضيافة للحجاج الروس تمّوله الكنيسة الروسية، انظر: "الرئيس الروسي يزور موقع المغطس في الأردن يتسلم شهادة ودرع المغطس ويزور قطعة الأرض المخصصة كبيت لضيافة الحجاج الروس، الشرق الأوسط، ٢٠٠٧/٢/١٦، شوهدي في ٢٥/١/٢٠١٥، على الرابط:

<http://archive.aawsat.com/details.asp?section=54&article=406548&issue=10307#.VMTKwNySxgs>

وفي الزيارة الثانية له للمنطقة في صيف ٢٠١٢، زار بوتين معبد القبر المقدس، قبل الحجر الذي جرى غسل السيد المسيح فيه، وبقي في خلوة وحده لمدة عشر دقائق. وزار أيضًا كنيسة المهد في بيت لحم في فلسطين المحتلة. وفي الأردن افتتح مقر بيت ضيافة الحجاج الروس واغتسل بمياه نهر الأردن، "ما سر خلوات بوتين وتعبده في الأرض المقدسة؟"، وكالة أنباء موسكو، ٢٠١٢/٦/٢٧، شوهدي في ٢٥/١/٢٠١٥، على الرابط:

<http://anbamoscow.com/aworld/20120627/375765452.html>

وفي الشأن السوري، أوفد الرئيس الروسي بطيريك موسكو وسائر روسيا كيريل لزيارة سورية ولبنان (١٢-١٥ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠١١) في مهمة سلام التقى فيها الرئيس السوري بشار الأسد، انظر: "بطيريك موسكو وسائر روسيا كيريل يزور سورية ولبنان في 'مهمة سلام'"، روسيا اليوم، ٢٠١١/١١/١١، شوهدي في ٢٥/١/٢٠١٥، على الرابط:

<http://goo.gl/Lt9jY1>

وفي إطار حوار أجرته جريدة الأخبار اللبنانية مع وزير الخارجية السوري وليد المعلم وخلال نقاشه عن الموقف الروسي من الأزمة السورية، ركّز المعلم على "روسيا مدينة لسوريا بإيمانها الأرثوذكسي، أي بأحد العناصر الأساسية في هويتها القومية" انظر: ناهض حتر، "المقابلة | المعلم: سنحصل على 'اس ٣٠٠ قريبتًا'، الأخبار، ٢٠١٤/١١/٦، شوهدي في ٢٥/١/٢٠١٥، على الرابط:

<http://www.al-akhbar.com/node/219143>

٢٦ تخوف لافروف في آذار/مارس ٢٠١٢ من وصول "نظام سني" في سورية، انظر: "تصريحات لافروف عن 'حكم السنة' في سوريا تثير إدانات موسعة"، الشرق الأوسط، ٢٠١٢/٣/٢٣، شوهدي في ٢٥/١/٢٠١٥، على الرابط:

http://classic.aawsat.com/details.asp?section=4&article=669347&issue=12169#.VMD_G9ySzVE

أو موقف بوتين من المخاوف على الأقليات في سورية إذا ما سقط النظام في سورية خلال لقائه المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل في موسكو، "قلق روسي على الأقليات ورعاية سعودية لتوحيد المسلحين"، السفير، ٢٠١٢/١١/١٧، شوهدي في ٢٢/١/٢٠١٥، على الرابط:

<http://www.assafir.com/Article.aspx?EditionID=2311&ChannelID=55504&ArticleID=1637>

العالمية، والوضع المضطرب في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. إلا أن الوثيقة لم ترد على ذكر الشرق الأوسط إلا في البند الـ ٨٨ ومن خلال مبادئ عامة فقط في إطار الأولويات الإقليمية التي جاءت في البند الـ ٤٢ من الوثيقة^(٢٧).

وفقًا لوثيقة الخارجية الروسية، لا يقع المشرق العربي ضمن مناطق الأمن القومي الروسي. وعليه، لن تكون روسيا قادرة على الدفاع عن مصالحها الوطنية بصورة تنافسية مع الولايات المتحدة الأمريكية، كما في دول الجوار الروسي القريب، بناءً على موقعها في النظام الدولي، كما أسلفنا سابقًا. إلا أن مسألة الحركات العابرة للحدود وبخاصة "الحركات الإسلامية المتطرفة" وانتشارها في المشرق العربي، لا بد وأن تترك تأثيرها في مناطق النفوذ الروسية القريبة في دول بحر قزوين وآسيا الوسطى، بل وفي العمق الروسي نفسه في الشيشان وداغستان. أضف إلى ذلك التقارب الجيوسياسي بين المشرق العربي ودول آسيا الوسطى وبحر قزوين. ما يجعل روسيا دولة ناشطة جيوسراتيجيًا في المشرق العربي، لكن ليس في مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية، وإنما في مواجهة تركيا.

تكوّنت الحضارة الروسية على أساس التمازج العرقي التركي - السلافي تاريخيًا^(٢٨). وبما أن أجزاء كبيرة من مواطني دول آسيا الوسطى، تتكلم اللغة التركية ومن أصول تركية، إضافة إلى المواطنين من الأصول التتارية والمسلمين في داخل روسيا نفسها. فإن ذلك يعني رصيدًا من القوة التركية للتمدد في العمق الروسي بعد زيادة رصيدها الجيوسراتيجي في المشرق العربي ممزوجة بخلفيات أيديولوجية دينية تسمح بنقلها إلى العمق الروسي. يعني ذلك نقل الإشكالية الثقافية إلى داخل روسيا وعزل روسيا إثنياً^(٢٩)، وإبعاد روسيا عن المواطنين ذوي القومية الروسية في الدول الأوراسية. وستصبح مناطق القوقاز والشيشان وداغستان وأبخازيا بؤرة للصراعات والاضطرابات، ما إن تصادم فيها المصالح الجيوبوليتيكية لتركيا الأطلسية مع روسيا الأوراسية^(٣٠). أي هناك قلق روسي كبير من النفوذ التركي في آسيا الوسطى والعمق الروسي، يستند على أسس مذهبية وإثنية، وعليه لا بد لها من الحد

20 the Ministry of Foreign Affairs of the Russian Federation, "Concept of the Foreign Policy of the Russian Federation Approved by President of the Russian Federation V. Putin", 12/2/2013, at: <http://goo.gl/WxxoC>

٢١ زبغنيف بريجنسكي، رقعة الشطرنج العظمى، سليم إبراهيم (مترجم)، ط ١ (سوريا: دار علاء الدين، ٢٠٠١)، ص ١٠٢ - ١٠٣.

٢٢ دوغين، أسس الجيوبوليتيكا ومستقبل روسيا الجيوبوليتيكي، عماد حاتم (مترجم)، ط ١ (بيروت: دار الكتب الجديدة المتحدة، ٢٠٠٤) ص ٢١١.

٢٣ المرجع نفسه، ص ٢٩٠ - ٢٩١، ص ٣٠٢ - ٣٠٣.

يتباين باحثو العلاقات الدولية في ضرورة تحليل أيديولوجية النظام السياسي أو العوامل الداخلية في الدولة خلال تحليل السياسة الخارجية لأي دولة في العالم. يذهب البعض منهم إلى أن الدولة ستتخذ قراراتها، وفقاً لمصالحها الوطنية على أن يكون أمنها القومي على رأس أولوياتها، وذلك بغض النظر عن أي مسائل أخرى داخلية. بينما يذهب البعض الآخر، إلى ضرورة الأخذ في تحليل السياسة الخارجية المسائل الأيديولوجية للنخبة الحاكمة، أو العوامل الاقتصادية، أو أي قضية محلية أخرى... تمثل السياسة الخارجية الإيرانية أكبر جدلاً حول هذه المسألة في المشرق العربي في وسما بسياسات طائفية شيعية أو سياسات مصالح قومية إيرانية. تدعم إيران جميع حركات الإسلام السياسي الشيعية في لبنان والعراق والبحرين واليمن. وترسخ بناء سياسات طائفية في العراق، بإصرارها على دعم حكومات إقصائية طائفية^(٣٠). وتسهل مشاركة مقاتلين شيعية إلى جانب النظام السياسي الحاكم في الحرب السورية أو تجنّدهم، عدا عن وجود عسكري للحرس الثوري الإيراني على الأراضي السورية. لكنّها في منطقة القوقاز مثلاً، تساند إيران أرمينيا (غالبية سكانها يدينون بالدين المسيحي) في نزاعها حول إقليم ناغورني كاراباخ مع أذربيجان (غالبية سكانها يدينون بالدين الإسلامي وبالمذهب الشيعي).

في جميع الحالات، المصلحة القومية الإيرانية هي المحدد الأساسي لسياساتها الخارجية، لكن ضمان المصلحة القومية، يحتاج إلى أدوات تأثير في أي صراع سياسي خارجي. وفي حالة المشرق العربي، يكون الإسلام السياسي الشيعي، هو الأداة الأكثر سهولة والأقل كلفة، لتعظيم أكبر قدر ممكن من المصالح القومية الإيرانية. إنّ إيران بوصفها دولة متعددة الإثنيات والمذاهب، وهي لا تزال في مرحلة بناء الدولة الوطنية^(٣١)، قد لا تمتلك أي مصلحة في الدفع باتجاه أي تقسيمات لدول المشرق العربي، طالما أنّ مصالحها تؤخذ في الحسبان، لكنّها سوف تستمر في دعم الحركات الإسلامية الشيعية، ما يترك آثاراً ونتائج غاية في السلبية على هوية دول المشرق العربي.

تسعى روسيا إلى المساهمة في تسليح الجيش العراقي^(٣٢)، وتقدّم كلّ أنواع الدعم العسكري والسياسي للنظام السياسي السوري على الرغم من مطالبتها بالحلّ السياسي القائم على الحوار مع المعارضة السورية. كما وقّعت مع الحكومة السورية عقد التنقيب عن الغاز والنفط في الساحل السوري^(٣٣)، وأرسلت عدداً من السفن الحربية إلى قاعدة طرطوس على البحر المتوسط، كلّما توترت الأوضاع العسكرية في سورية بصورة متزايدة^(٣٤). وبناءً على وزن روسيا الجيوسراتيجي في النظام الدولي وحجم امتلاكها أدوات التأثير في المشرق العربي، تكون قدرتها محدودة على الدفع باتجاه التقسيم في المنطقة، وضعيفة القدرة على منعه، لكن سياساتها مؤثرة وفاعلة في تطوّر الأحداث في سورية والعراق.

إنّ التركيز الروسي على مسألة "الأقليات" في المشرق العربي، قد يتلاقى مع الاستشراق الغربي في النظرة إلى المشرق العربي. ما يجعل بنية النظام الدولي مهية لتقبل فكرة تجزئة المشرق العربي إلى دويلات، أو فيدراليات، أو صناعة جماعات سياسية متناحرة هوياتياً في إطار الدولة الوطنية الواحدة.

المستوى الإقليمي

يتأثر المستوى الثاني (الإقليمي) بالمستوى الأول (الدولي)، ويؤثر فيه. لقد احتلت الولايات المتحدة الأميركية العراق على الرغم من معارضة أغلب الدول الإقليمية المجاورة للعراق أو عدم حماسها، لكنّها ظلت تراعي المصالح الإقليمية للدول المجاورة المتضررة والمستفيدة من الفوضى في العراق. وفي الأزميتين السورية والعراقية، صاغت الولايات المتحدة الأميركية مخرجاتها الدولية، بالتنسيق مع القوى الإقليمية في المشرق العربي (إيران، وتركيا، والسعودية، وإسرائيل).

٢٧ "العراق يتوقع الدفعة الثانية من الأسلحة الروسية في بداية عام ٢٠١٤"، أخبار الدفاع والتسليح، ٢٠١٣/١٢/١٥، شوه في ٢٠١٥/١/٢٥، على الرابط:

<http://defense-arab.com/news/5286>

٢٨ "الحكومة تصادق على عقد التنقيب مع سيزو نفط الروسية"، الاقتصادي، ٢٠١٤/٥/١٨، شوه في ٢٠١٥/١/٢٥، على الرابط:

<https://sy.aliqtisadi.com/376832-سورية-نفط-ساحل-روسية>

٢٩ أرسلت روسيا في بدايات عام ٢٠١٣ حربية (نوفوتشركاسك وازوف، ونيكولاي فيلتنشيكوف)، انظر: "في طريقها إلى ميناء طرطوس روسيا ترسل سفينة إنزال حربية إلى سوريا"، جريدة الاتحاد، ٢٠١٣/١٢/٣١، شوه في ٢٠١٥/١/٢٥، على الرابط:

<http://www.alittihad.ae/details.php?id=125206&y=2012&article=full>

٣٠ أضرت إيران على تجديد ولاية رئيس الوزراء العراقي السابق نوري المالكي (حزب الدعوة) على الرغم من فوز "القائمة العراقية" في الانتخابات البرلمانية ٢٠١٠، ودعمته طيلة مدة حكمه على الرغم من تهميشه كلّ القوى السياسية في العراق. إنّ أوضح تجلّ لثائفة نوري المالكي هذه الأزمة السياسية التي يمر بها العراق بعد الحركة الاحتجاجية في المحافظات الغربية أنّ المعركة ما زالت مستمرة بين "أحفاد الحسين وأحفاد معاوية"، انظر مقطع الفيديو التالي، شوه في ٢٠١٥/٢/٥، على الرابط:

<https://www.youtube.com/watch?v=AySTmmS7XGY>

٣١ بمعنى عدم نشوء نظام سياسي ديمقراطي قادر على تجنيب البلاد أي هزات اجتماعية مستقبلاً.

إقليم كردستان العراق وفقاً لحسابات دقيقة ومعقدة (اقتصادية، وسياسية). ومن ثمّة سيطر المقاتلون الأكراد على مناطق إستراتيجية في سورية، وأعلنوا إنشاء منطقة حكم ذاتي للأكراد في سورية سالفه الذكر أعلاه. ولذلك، سوف نجد أنّ تركيا لم تتدخل في أزمة عين العرب "كوباني" ٢٠١٤ ذات الغالبية الكردية عندما حاول تنظيم "الدولة الإسلامية" في العراق والشام" اقتحامها والسيطرة عليها على الرغم من المطالب الدولية والمحلية الكردية بذلك، إلا وفقاً لإستراتيجية متكاملة تأخذ في الحسبان المصالح التركية^(٣٢).

”

قلب الربيع العربي، والانتفاضة السورية بخاصة، المشهد الإقليمي برّمته؛ إذ تدرجت تركيا في سياساتها من مرحلة الدعوات إلى الإصلاح في سورية، وإشراك القوى السياسية المعارضة في الحكم بما فيها الإخوان المسلمون، إلى الانحياز الكامل للمعارضة السورية

”

عملت تركيا طيلة الصراع العسكري في سورية على عدم السماح لميزان القوى المحلي بالاختلال لمصلحة النظام السياسي في سورية وحلفائه الإقليميين. فعندما حقق الجيش السوري وحزب الله اللبناني تقدماً عسكرياً كبيراً في منطقة القلمون في ريف دمشق في نهايات آذار / مارس ٢٠١٤^(٣٣)، قدّمت تركيا للمعارضة السورية المسلحة دعماً لوجستياً وعسكرياً، لفتح جبهة جديدة في مدينة كسب الحدودية في مدينة اللاذقية في نهاية آذار / مارس ٢٠١٤، حتى لو ضمت بينها تنظيمات إسلامية متشددة^(٣٤). ما وضع مدينة اللاذقية على حافة

استطاعت تركيا خلال العقود الماضية بناء دولة مؤسسات ونظام سياسي ديمقراطي، يقوم على التعددية الحزبية والانتقال السلمي للسلطة. توافق ذلك مع إنجازات اقتصادية مهمة، نقلت تركيا لأن تصبح إحدى دول مجموعة G 20. ما حوّلها إلى أحد أهم اللاعبين الإقليميين الفاعلين في المشرق العربي. لكن الجنوب التركي ظلّ منطقة جغرافية تؤرق الحكومات المركزية المتعاقبة في تركيا، بفعل النزعات المتمردة لدى بعض القوى السياسية أو الميليشيات الكردية، وأزمة الهوية (التركية/العربية/الطائفية) لدى المواطنين الأتراك من ذوي الأصول العربية السورية.

نشطت تركيا توجهاتها الجيوستراتيجية في المشرق العربي، بعد وصول حزب العدالة والتنمية إلى السلطة (الإسلامي المعتدل) والاحتلال الأميركي للعراق ٢٠٠٣، بسبب الفراغ الأمني الذي أحدثته الاحتلال وحاجتها إلى التنسيق مع الدول العربية والإقليمية لضبط التفاعلات المحلية في العراق والتوازنات الإقليمية. لكن ترتيبات الاحتلال أسفرت عن تجسيد كيان سياسي واقعي مسمّى "كردستان العراق" في شمال العراق، وهو ما يتعارض مع صلب المصالح القومية التركية.

كانت العلاقات التركية السورية، مدخلاً لتشابك تركيا الإقليمي مع الدول والقوى العربية الأخرى وممرّاً لتسويق بضائعها ومنتجاتها حتى وصلت درجة التعاون بين كلا الدولتين إلى إلغاء سمات الدخول بينهما، ومن ثمّة مع العديد من الدول العربية الأخرى، كلبان والأردن. ارتكزت السياسة الخارجية التركية في المشرق العربي في تلك الفترة على بعدين أساسيين هما: بعد أمني، يقوم على محاولة وضع حدٍ للفوضى في العراق وضمان استقرار العراق ووحدته، والحدّ من حركة حزب العمال الكردستاني ونشاطه في سورية والعراق. وبعد اقتصادي، يتمثل بتعظيم المصالح الاقتصادية التركية في المشرق العربي، حتى غدت تركيا أكبر دولة مستثمرة في سورية.

قلب الربيع العربي، والانتفاضة السورية بخاصة، المشهد الإقليمي برّمته؛ إذ تدرجت تركيا في سياساتها من مرحلة الدعوات إلى الإصلاح في سورية، وإشراك القوى السياسية المعارضة في الحكم بما فيها الإخوان المسلمون، إلى الانحياز الكامل للمعارضة السورية، مع تقديم الدعم اللوجستي للمعارضة المسلحة في شمال سورية وشمال غربها، وتزويدها بأنواع محددة من الأسلحة والمعدات.

خشيت تركيا التطورات العسكرية في شمال شرق سورية وتفاعلاتها التي أدت إلى ظهور مقاتلين أكراد أطلقوا على أنفسهم "قوات حماية الشعب الكردي". فالتجهت تركيا إلى التنسيق والتعاون مع حكومة

٣٢ للاطلاع على هذه الشروط يمكن الرجوع إلى: محمود سمير الرنتيسي، "التحالف ضد تنظيم الدولة: معطيات وشروط تركيا"، مركز الجزيرة للدراسات، ٢٠١٤/١٠/٢٠، شوهد في <http://studies.aljazeera.net/reports/2014/10/2014102095528342358.htm>

٣٣ وسيم عيناوي، "أسباب الانسحابات والمواجهات الحالية"، الجزيرة نت، ٢٠١٤/٣/٢٤، شوهد في <http://goo.gl/bYhDAe>

٣٤ أطلقت المعارضة اسم معركة الأنفال، ومن بين الفصائل التي شاركت في المعركة (جبهة النصرة، وحركة شام الإسلام وهو تنظيم إسلامي من دول المغرب العربي يقاتل في ريف اللاذقية، وأنصار الإسلام التابعة للجبهة الإسلامية)، قاد المعركة أبو موسى الشيشاني من تنظيم أنصار الشام المقرب من جبهة النصرة. لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى: وسيم نصر، "كيف جرت معركة كسب في ريف اللاذقية وما هي تداعياتها؟"، فرانس ٢٤، ٢٠١٤/٣/٢٥، شوهد في <http://goo.gl/ZwxEuf>

الصدام الأهلي والعنف المجتمعي في المدينة على غرار المدن السورية الأخرى المختلطة طائفياً، كحمص وريف حماه.

تفرض الحسابات الاجتماعية والإثنية على تركيا، ألا تدعم بأي نمط أو زمن أي توجهات ذات نزعات انفصالية^(٣٥). لكن تجاهل مصالحها، قد يدفعها إلى تبني سياسات تؤدي إلى المزيد من العنف السياسي والاجتماعي في المشرق العربي. بخاصة إذا ما تعلق المسألة بأمن المواطنين السوريين أو العراقيين من التركمان^(٣٦).

أما المملكة العربية السعودية، وهي الدولة العربية الإقليمية الأكثر تأثيراً في مجريات الأحداث في المشرق العربي، فقد تكونت تاريخياً من ضم أقاليم جغرافية في شبه الجزيرة العربية. بمعنى أنها ما زالت دولة في طور تكوينها الوطني، وبناء نظام سياسي يواجه تحديات سياسية واجتماعية عميقة. لم توافق المملكة العربية السعودية على الاحتلال الأميركي للعراق ٢٠٠٣ من حيث المبدأ، لكنها خضعت مثلها مثل القوى الدولية الأخرى، للرغبة الأميركية ومصالحها. ومن ثمّة عملت على التركيز على ثلاث نقاط رئيسة في سياساتها تجاه العراق؛ وهي: استقرار العراق ووحدته وعروبته، والتي تعني ضمناً الحد من النفوذ الإيراني في العراق. لكن التنسيق الأميركي الإيراني كان جلياً بصورة أكبر من التنسيق مع السعودية، وهو ما أوصل إلى الحكم

٣٥ انظر مثلاً تصريحات الرئيس التركي رجب طيب أردوغان بعد استعادة القوات الكردية السيطرة على عين العرب كوباني بأنه لن يقبل بأي شكل من الأشكال إقامة "كردستان سورية": "أردوغان: لا نقبل إقامة 'كردستان' في سورية"، دي برس، ٢٧/١٠/٢٠١٥، شوهدي ٢٢/١٠/٢٠١٥، على الرابط:

<http://www.dp-news.com/pages/detail.aspx?articleid=172626>

٣٦ انظر مثلاً تصريحات رئيس الوزراء التركي السابق رجب طيب أردوغان ووزير خارجيته السابق أحمد داوود أوغلو في منتدى التركمان في العاصمة التركية أنقرة، بمناسبة تأسيس جمعية التركمان السوريين في نهاية شهر آذار/مارس ٢٠١٣. حيث أعلن خلالها أن تركيا لن تتخلى عن الأشقاء التركمان في سورية: "تركيا تحض تركمان سوريا على تحديد دورهم في مستقبل البلاد"، الشرق الأوسط، ٣١/٣/٢٠١٣، شوهدي ١١/٢/٢٠١٥، على الرابط:

<http://m.aawsat.com/content/1364688876489355500/Top%20Stories>

كما يطلق نشطاء المعارضة السورية في اللاذقية تسمية جديدة على الجبال الساحلية في سورية ما بين اللاذقية وكسب (جبل التركمان) على الرغم من اسمه الجغرافي التاريخي (كتلة البايير والبسيط) وهي هضاب الجبل الأقرع وهي جزء من سلسلة جبال الساحل الغربية التي تبدأ بجبال الأمانوس في لواء أسكندرون تليها كتلة البايير والبسيط وهي وحدها ما تبقى لسورية من هضاب الجبل الأقرع بعد اقتطاع اللواء، انظر: صفوح خير، سورية دراسة في الجغرافية السياسية (دمشق: وزارة الثقافة السورية، ٢٠٠٣)، ص ٥٤-٥٥؛ وانظر تصريحات رئيس الوزراء التركي السابق رجب طيب أردوغان، في مركز القرن الذهبي للمؤتمرات في مدينة إسطنبول التركية في عام ٢٠١٣ خلال استقباله رئيس الجبهة التركمانية العراقية أرشد الصالحي بأن التركمان عنصر أساسي لا يمكن الاستغناء عنه في سياسة تركيا: "أردوغان" يستقبل مسؤولي الجبهة التركمانية العراقية، موقع حزب العدالة والتنمية التركي، ٦/١٢/٢٠١٣، شوهدي ١١/٢/٢٠١٥، على الرابط:

<https://www.akparti.org.tr/arabic/haberler/irak-turkmen-cephesi-uyelerini-kabul-etti/56405#1>

حكومات عراقية متتالية، تدين بالولاء لإيران. لم تدعم المملكة العربية السعودية الثورات العربية، بل قادت معسكر الثورات المضادة. يمكن تحديد الموقف السعودي من الثورات العربية في إطار اتجاهين؛ هما منع الحركات الإسلامية من الوصول إلى السلطة عن طريق الانتخابات الديمقراطية، وألا تؤول مجريات الثورات في مصلحة التمدد الإيراني في المشرق العربي^(٣٧).

وانطلاقاً من ذلك، لا يوجد أي مصلحة للمملكة العربية السعودية باتباع سياسات تدعم أي نزعات انفصالية في سورية والعراق. لكن مشكلتها الأساسية في مدى تأثرها بقرارات حليفتها الولايات المتحدة الأميركية.

مثل الصراع العربي - الإسرائيلي، وسياسات الدول العربية تجاهه وتحديد أولوياته، المحور الأساسي للتفاعلات بين الدول العربية. وهو ما صاغ النظام الإقليمي العربي منذ نكبة فلسطين ١٩٤٨. وعلى الرغم من الإخفاق العربي في تحرير فلسطين، ظلت إسرائيل تشعر بمعضلتها الأمنية، ما دامت هي في خارج سياق هذا النظام. صعدت قوى اجتماعية وسياسية جديدة في الدول العربية بعد هزيمة عام ١٩٦٧، واستمر خلفاء في سياساتها وأولوياتها تجاه القضية الفلسطينية وقضايا إقليمية أخرى، إضافةً إلى تراكم التغيير في بنية النظام الدولي. ما دفع بالحكومات العربية ومنظمة التحرير الفلسطينية - بصورة متتالية - إلى الدخول في مفاوضات سلام مع إسرائيل، ووقّعت مصر والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية معاهدات "سلام" مع إسرائيل بصورة منفردة. لكن إسرائيل ظلت تعاني مأزقاً أمنياً مع صعود حركات أيديولوجية دون دولاوية في فلسطين ولبنان، رفضت تلك التسويات مع إسرائيل، وتبنت الكفاح المسلح لتحرير الأراضي العربية. فأقدمت إسرائيل على الانسحاب من جنوب لبنان عام ٢٠٠٠، واستكملت إجراءات انسحابها من قطاع غزة في عام ٢٠٠٥.

أنتج الاحتلال الأميركي العراق ٢٠٠٣، وتحولّه إلى دولة ميليشيات متصارعة، تضعف أو انهياراً للنظام الإقليمي العربي، بل فتح عهد اختلال الدولة الوطنية ذاتها في المشرق العربي وتشردمها. ومن حينها، لم تُقدّم إسرائيل على تقديم أي تنازل إستراتيجي للدول العربية، بل وسّعت عملياتها الاستيطانية، وتشددت في المفاوضات مع كلّ

٣٧ لمزيد من التفاصيل عن الدور السعودي في المشرق العربي، انظر: مروان قبّان، "صعود تنظيم الدولة وتحولات النظام الإقليمي في المشرق العربي"، سياسات عربية، العدد ١٢ (كانون الثاني/يناير ٢٠١٥)، ص ١٧ - ١٨.

التفوق الإستراتيجي العسكري على مجموع الدول العربية، وإِثْمًا أيضًا لشرعنة سياستها في الداخل الإسرائيلي في تحقيق مبدأ "يهودية الدولة"، والذي يتجاهل البعد الاستعماري، ويحوّل الصراع إلى صراع ديني، حيث يطغى على الهوية الإسرائيلية الطابع الديني اليهودي بوصفه انعكاسًا لهوية الجماعة الإسرائيلية وروحها الثقافية^(٣٩). ولا تخفي إسرائيل مثلاً دعمها استقلال إقليم شمال العراق أو "كردستان العراق" على أساس أنّ العراقيين الأكراد شعب يستحق الديمقراطية والاستقلال^(٤٠).

منذ معاهدة السلام المصرية - الإسرائيلية والحرب العراقية - الإيرانية، اتسم النظام الإقليمي العربي بالهشاشة والقابلية للتغيير؛ إذ بقي يتغير كلّ مدة عشر سنوات تقريبًا، وأصبحت محاوره تقاد من أطراف غير عربية. وذلك بسبب بقاءه عرضة للتأثر بطبيعة الصراع في بنية النظام الدولي. وفي المحصلة، لا يبدو المستوى الإقليمي عاملًا دافعًا باتجاه تقسيم دول المشرق العربي. لكن تعارض مصالح أطرافه، قد يدفع فاعليه الأساسيين إلى تبني سياسات لا تتوافق مع وحدة دول المشرق العربي ومصالحها. كما أنّه هو ذاته، أي المستوى الإقليمي، فشل في تحقيق ضمان أو توافق على الأمن الإقليمي منذ احتلال العراق ٢٠٠٣.

الدولة الوطنية وصراعات الهوية

ما كان للنظام الدولي والمستوى الإقليمي أن يكون له فاعلية فيصوغ قرارات مستقبل المشرق العربي ومخرجاته، لو أنّ أنظمتها السياسية نجحت في بناء مؤسسات الدولة، وساهمت لترسخ الهوية الوطنية أو فتحت المجال لذلك. نشأت دولتا سورية والعراق من منطقة المشرق العربي بعد خضوعها لعهود طويلة من الاحتلال الأجنبي (العثماني، والأوروبي)، عرفت خلالها - بخاصة سورية في عهد الاحتلال الفرنسي - سياسات الهوية الطائفية والإثنية، وتطبيقها فعليًا في ممارسات الحياة اليومية أو على شكل كيانات سياسية.

٣٩ للتوسع في مفهوم الدولة اليهودية، انظر: هنيدة غانم، "مقدمة في معنى دولة يهودية"، في: مجموعة مؤلفين، هنيدة غانم وأنطوان شلحت (محرران)، في معنى الدولة اليهودية (فلسطين: المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية، ٢٠١٢)، ص ١١ - ٣١.

٤٠ دعا رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو في ٢٩ حزيران/يونيو ٢٠١٤ في كلمة أمام معهد دراسات الأمن القومي في تل أبيب إلى "الأكراد هم شعب مقاتل وعصري على الصعيد السياسي ولهم الحق في استقلال سياسي"، انظر: "نتنياهو يدعو لاستقلال كردستان العراق ودعم الأردن أمام 'داعش'، الشروق (مصرية)، ٢٠١٤/٦/٣٠، شوهدي في ٢٠١٥/٢/١٥، على الرابط: <http://goo.gl/zfovEV>

الأطراف العربية، وكررت استخدامها القوة العسكرية في ضرب خصومها في سورية ولبنان وفلسطين في عدة حروب أو اغتيلات أو قصف مواقع عسكرية.

قلقت إسرائيل من مسار الثورات العربية ومآلاتها، في مرحلتها الأولى على الأقل. وظلت في موقع المراقب القريب لأحداث الانتفاضة الشعبية في سورية. إذ لم تكن معنيّة بقيام نظام ديمقراطي في سورية مجهول الهوية والسلوك، قد يهدد أمنها مستقبلاً. ولن تخسر سياسيًا أو أمنياً، في حال نجحت المعارضة السورية في إسقاط نظام، لم تستطع التوصل معه لاتفاق سلام، ويساند حركات المقاومة في فلسطين ولبنان. لكن السمة الأساسية التي ميّزت الموقف الإسرائيلي من الأحداث في سورية هي مدى قدرتها على استغلال هذه الحرب بالتخلص من أيّ قدرات إستراتيجية في سورية تهدد أمنها، وذلك بغض النظر، عمّن يملكها أو سيمتلئها، أو يستخدمها أو لا يستخدمها. ولذلك، سوف يقوم سلاح الجو الإسرائيلي بقصف مواقع تخزين الصواريخ السورية عدة مرات. وسوف ينشط اللوبي الإسرائيلي في الولايات المتحدة الأميركية لتوجيه ضربة عسكرية للجيش السوري، عندما استخدم السلاح الكيماوي في الغوطة الشرقية في خريف عام ٢٠١٣، ومن ثمّة تراجع نشاطه بعد إتمام صفقة الكيماوي التي ضمنت التخلص من المخزون السوري من الأسلحة الكيماوية، بحيث تحقق بذلك أحد أهم أهداف الأمن الإسرائيلي^(٣٨).

انتقلت إسرائيل في حالة حروبها مع الدول العربية من حروب ضد مجموعة من الجيوش العربية (حرب فلسطين ١٩٤٨، حرب حزيران / يونيو ١٩٦٧، حرب تشرين الأول / أكتوبر ١٩٧٣) إلى عدوانيات جزئية ضد حركات وفصائل أيديولوجية عربية، والتي تقدّمها إسرائيل على أنها ليست حربًا ضد "دولة مجاورة"، وإِثْمًا ضد مجموعة مسلحة أو حركة "إرهابية" في محاولة منها لاستثمار التنوع السياسي والهوياتي في المشرق العربي.

إسرائيل هي القوة الإقليمية الوحيدة التي تتحقق مصالحها في تقسيم دول المشرق العربي، وتحوّلها إلى جماعات متناحرة فيما بينها بدلاً من التناحر معها، ليس من منطلق تحقيق أمنها الذاتي فقط والحفاظ على

٣٨ "صفقة الكيماوي: المخرج الذي يحتاجه أوباما"، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٣/٩/١٥، شوهدي في ٢٠١٥/٢/١٢، على الرابط: <http://www.dohainstitute.org/release/04ab0be2-4249-46c7-9830-904b7b13560e>

الهوية العراقية

يعتقد الباحث العراقي في علم الاجتماع عصام الخفاجي أنَّ بدايات تشكّل الهوية الوطنية العراقية الحديثة تعود إلى القرن الثامن عشر مع بروز وحدة إدارية تجمع مدن العراق الرئيسة مركزها بغداد. ويجادل في تبسيط بعض الباحثين العراقيين بأنّ المستعمر البريطاني شكّل الدولة العراقية من اتحاد أقاليمه الإدارية الثلاثة (بغداد، والموصل، والبصرة) ومعها نشأت الهوية العراقية، حيث يقدّم أدلة وبراهين ووقائع سياسية واجتماعية واقتصادية على نشوء الهوية الوطنية العراقية قبل الاحتلال البريطاني. بمعنى أنّ القرارات الاستعمارية في ترسيم حدود الدولة العراقية الحديثة، وبغض النظر عن النوايا الاستعمارية، هي نتاج تكيفها مع الحقائق الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للمجتمعات العراقية^(٤١).

تفاقت مشكلة الهويات الفرعية في العراق مع دخوله في سلسلة من موجات العنف الدولية والمحلية. ومن ثمّة فرض المجتمع الدولي عقوبات اقتصادية على العراق، أنهكت المجتمع العراقي. تزامن ذلك مع حدة الاستبداد السياسي وإغلاق القنوات السياسية كافة أمام القوى الاجتماعية العراقية، لطرح حلول سياسية بديلة لأزمات العراق الدولية والمحلية. ما أثر سلبياً في بعض من فئات المجتمع العراقي، وغير اتجاهاتها السياسية والفكرية^(٤٢).

لم تبدأ الطائفية الاجتماعية في العراق مع الاحتلال الأميركي للعراق ٢٠٠٣، لكن صناعة الطائفية السياسية ومأسستها هوية سياسية انطلقت معه، بتفكيك بنية الدولة العراقية^(٤٣)، وصوغ دستورها الجديد على أسس ومبادئ مذهبية وإثنية^(٤٤)، أتاحت لقوى سياسية

٤١ عصام الخفاجي، "تشكل العراق الحديث والوقائع والأساطير"، مجلة كلمن، العدد ٧، (صيف ٢٠١٢)، شوهد في ٢٠١٥/٢/١٨، على الرابط:

<http://www.kalamon.org/articles-details-159#axzz39z3nGPIQ>

٤٢ يمكن ملاحظة أنّ الحركات الجهادية التكفيرية في العراق لم تظهر بصورة واضحة في العراق إلا بعد عام ١٩٩١ باتجاه بعض الشبان العراقيين نحو الحركات السلفية، وبخاصة مع ما سُمّي "الحملة الإيمانية" التي رعتها السلطة الحاكمة في العراق، والذين انضموا لتنظيم القاعدة بعد احتلال العراق في عام ٢٠٠٣. هذا عدا عن تراجع دور حزب البعث في المحافظات العراقية ذات الغالبية الشيعية تدريجياً، بخاصة بعد انتفاضة المحافظات الجنوبية في عام ١٩٩١ وارتفاع نبرة خطاب القوى السياسية الكردية للمطالبة بفدرالية لإقليم كردستان العراق، بعد قمعها في عام ١٩٩١.

٤٣ سنان أنطون، "العراق: خطاب التقسيم والأقلية"، موقع جدلية، ٢٠١٤/٦/٢٨، شوهد في ٢٠١٥/٢/١٨، على الرابط:

<http://goo.gl/4MXRke>

٤٤ انظر: الدستور العراقي، موقع الأمانة العامة لمجلس الوزراء العراقي، على الرابط التالي: <http://cabinet.iq/PageViewer.aspx?id=2>

كردية إنشاء فيدرالية في شمال العراق، ومحاصصة عُرقية طائفية وإثنية لمناصب السلطة السياسية الجديدة. وتبعاً لتركيب هذه السلطة السياسية، مازالت العملية السياسية تتعثّر في العراق، وتنشأ أزمة سياسية حادة مع كلّ انتخابات برلمانية. وهو ما يحتاج إلى تدخل كلّ القوى الإقليمية والقوى الدولية الفاعلة للاتفاق على تشكيل الحكومة العراقية وأحياناً حكومات غير مكتملة. وفي كلّ أزمة تظهر أصوات وكتابات تدعو أو تنادي بالتقسيم أو فيدرالية لإقليم "شيعي" أو "سني". لكن أشدها أو بلغت مداها عندما انتفض أهالي المحافظات الغربية في العراق ضد حكومة نوري المالكي في ربيع عام ٢٠١٣، لما مارسه بحقهم من تهيش وإقصاء وتضييق. ودخلت العشائر العراقية في مواجهات مع قوات الأمن والجيش العراقيين بعد فضّها اعتصام أهالي مدينة الرمادي في مطلع عام ٢٠١٤^(٤٥). وكانت صورة انهيار الجيش العراقي أمام تنظيم "الدولة الإسلامية في العراق والشام" في العاشر من حزيران / يونيو ٢٠١٤ في مدينة الموصل، الأكثر تعبيراً عن فشل النظام العراقي وحلفائه في إعادة بناء الدولة الوطنية العراقية. ما سمح لقوات غير نظامية وميليشيات محلية طائفية أو قومية، تمتلك القوة العسكرية، بالدخول في معارك طويلة للسيطرة على مدن ومناطق عراقية خارجة عن إرادة الحكومة المركزية العراقية وإدارتها.

ثمّة تنافس تاريخي بين مركزين حضاريين كرديين في العراق، إربيل (الحزب الديمقراطي الكردستاني) والسليمانية (الاتحاد الوطني الكردستاني)؛ يتنافسان سياسياً، ويتميزان اقتصادياً واجتماعياً^(٤٦). لم تخف حكومة إقليم كردستان العراق رغبتها في الاستفادة من الأوضاع الحالية في العراق، فأعلنت رسمياً أنّ ميليشياتها لن تخرج من المناطق الجديدة التي سيطرت عليها قوات البشمركة الكردية بعد سقوط

٤٥ "حسابات أطراف الأزمة في اعتصامات الأتبار"، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٤/١/٧، شوهد في ٢٠١٥/١/١٩، على الرابط:

<http://www.dohainstitute.org/release/53f20a86-eb58-4a44-8dc8-08fb95a4c313>

٤٦ لمزيد التفصيل في تلك التمايزات، انظر: عصام الخفاجي، "كردستان: نشوة الاستقلال وأمازق الدولة"، الحياة، ٢٠١٥/١/٢١، شوهد في ٢٠١٥/٣/١١، على الرابط:

<http://goo.gl/DbtTem>

مناطق يقطنها أغلبية مذهبية، لكن محيطها الجغرافي مغاير مذهبياً. لا تزال العاصمة بغداد مدينة تضمّ جميع مكونات المجتمع العراقي، وحزامها الجغرافي الذي يحيط بها، يشتمل في أغلبه على مناطق ريفية وأغلب سكانه من العشائر المختلطة طائفيًا. وهو يمتدّ من جنوب بغداد، حيث مناطق المحمودية واليوسفية إلى مناطق الغرب حيث أطراف أبو غريب وإلى شمال شرق بغداد حيث أرياف مدينة سلمان باك^(٥٣). وكذلك العديد من المناطق في محافظات ديالى (مندي)، وجولاء، والمقدادية، والخالص، والسعدية...، وصلاح الدين، (بلد، والدجيل...)، والبصرة (الزبير، والفاو، وأبو الخصيب)^(٥٤).

”

لا تزال العاصمة بغداد مدينة تضمّ جميع مكونات المجتمع العراقي، وحزامها الجغرافي الذي يحيط بها، يشتمل في أغلبه على مناطق ريفية وأغلب سكانه من العشائر المختلطة طائفيًا

“

تنقسم هذه المناطق نفسها المختلطة طائفيًا بصورة حادة في كثير من الأزمات حول موقفها السياسي، وأحيانًا عديدة تشهد عنفًا طائفيًا مبررًا. لكن يجب التمييز هنا ما بين التوتر السياسي والاجتماعي والصراع بين المكونات العراقية. لم يبدأ العنف الطائفي في العراق إلا مع تعثّر العملية السياسية وتطبيقاتها والشروع في عملية اجتثاث البعث بعد الاحتلال الأمريكي. إنّ التوتر السياسي والاجتماعي في المجتمع العراقي، هو نتيجة طبيعية للخلل في توزيع الثروة والسلطة في مجتمع غير متجانس على مستوى الهوية، لا تكاد توجد فيه مؤسسات الدولة المشكوك في شرعيتها أصلًا. وهو ما ظل يؤدّ العنف الطائفي بين الفينة والأخرى منذ الاحتلال الأمريكي للعراق ٢٠٠٣. أمّا

٥٣ عدنان أبو زيد، "حزام بغداد.. الجغرافيا تلوذ بالطائفة"، موقع المونيتور، ٢٠١٣/٨/٢٨، شوهده في ٢٠١٥/٢/٢٥، على الرابط:

<http://www.al-monitor.com/pulse/ar/originals/2013/08/baghdad-belt-sectarian-conflict.html#>

٥٤ تضم ديالى مثلاً عشائر من الجبور والعزة والعبيد والدليم، وكلها تعود لقبيلة زيد وأفخاذ أخرى من قبيلة زيد من الجيش والبو سلطان وتضمّ المحافظة عشائر أخرى مثل الهواشم الموسوية ومن ربيعة وشمر وبني زيد وتميم والعنكية والدهلكية والداينية والندى والمجمع والكرخية والزهرية والقيسية الكروية، وكلّ هذه العشائر فيها خليط من السنة والشيعية وبنسب مختلفة، وكذلك الحال من ناحية التزاوج. لمزيد من التفاصيل عن التركيبة الاجتماعية في ديالى، انظر: "واقع ديالى بعد خمس سنوات من الاحتلال.. صورة قاتمة ووضع إنساني صعب"، وكالة حق، ٢٠٠٨/٢/٧، شوهده في ٢٠١٥/٢/٢٥، على الرابط:

<http://www.haqqnews.net/news.aspx?id=18576>

الموصل، وكذلك عن رغبتها في انفصال الإقليم عن العراق^(٥٧). وهو ما لم يلق معارضة من الاتحاد الوطني الكردستاني، بل وجد تشجيعًا لتلك الخطوة، على الرغم من التنافس التاريخي بينهما^(٥٨).

يقرّ الدستور العراقي بأنّ جمهورية العراق هي دولة اتحادية واحدة مستقلة، وينظمّ في مواده (١١٦-١١٩) آلية غير معقدة لإنشاء أقاليم اتحادية من محافظة واحدة أو عدة محافظات^(٥٩). وعلى الرغم من دستورية إنشاء أقاليم في الجنوب (شيعي) والوسط (سني)، لم يجرّ تشكيل أيّ منهما حتى يومنا هذا، ولا يوجد قوة سياسية عراقية واضحة ولها شعبية، تدعو إلى إنشائهما. أمّا الأصوات الداعية إلى تجزئة الجنوب والوسط، فقد ظلت مرهونة بحسابات الضغط السياسي بين القوى العراقية المتنافسة على نتائج الانتخابات، ومرتبطة بمدى حدة الأزمات السياسية والأمنية وضعف حكومات الوحدة الوطنية، كما أنّ تلك الأصوات ضعيفة في حالات الاستقرار النسبي^(٥٠).

يعود اختلاط سكان العراق في وحدات جغرافية عابرة للطوائف إلى عهود سابقة قديمة^(٥١)، وعلى الرغم من موجات الحروب والعنف التي شهدتها العراق^(٥٢)، بقي كثير من المناطق في العراق مختلطًا طائفيًا، أو

٤٧ في مقابلة مع صحيفة الحياة لرئيس الإقليم صرح البارزاني: "لنكن واقعيين. إن الحدود الجديدة تُرسَم بالدم بين الدول أحيانًا ودخلت الدول أحيانًا أخرى. إنّها حدود المجموعات والأدوار والمخاوف والضمانات والتطلعات"، انظر: غسان شربل، "بارزاني لـ 'الحياة': خرائط سايكس - بيكو مصطنعة والحدود الجديدة تُرسَم بالدم"، صحيفة الحياة، ٢٠١٥/٢/٧، شوهده في ٢٠١٥/٢/١٩، على الرابط:

<http://www.alhayat.com/Articles/7243606>

وفي مقابلة مع قناة العربية في ١٦ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٤ أكد البارزاني "أنّ موضوع استقلال الإقليم هو هدف لن يتمّ التخلي عنه". مقابلة رئيس إقليم كردستان مع قناة العربية، رئاسة إقليم كردستان، ٢٠١٤/١٢/١٧، شوهده في ٢٠١٥/٢/١٩، على الرابط:

<http://www.presidency.krd/arabic/articleidisplay.aspx?id=+/CHfRaazRI=>

٤٨ انظر مثلاً: رشا الأمين، "قوى كردية تؤيد تصريحات بارزاني حول استقلال كردستان"، راديو سوا، ٢٠١٤/٦/٢٦، شوهده في ٢٠١٥/٣/١١، على الرابط:

<http://goo.gl/tht4D5>

وكذلك وجّه كوسرت رسول، النائب الأول للسكرتير العام للاتحاد الوطني الكردستاني رسالة إلى رئيس الإقليم يدعوه فيها إلى إعلان استقلال الإقليم، انظر: "كوسرت يدعو البارزاني لإعلان كيان كردي مستقل عن العراق"، القدس العربي، ٢٠١٥/١/٢، شوهده في ٢٠١٥/٣/١١، على الرابط:

<http://www.alquds.co.uk/?p=273660>

٤٩ انظر: الدستور العراقي، موقع الأمانة العامة لمجلس الوزراء العراقي، على الرابط: <http://cabinet.iq/PageViewer.aspx?id=2>

٥٠ صادق طعمة، "عودة المطالبة بالإقليم السني ضغط سياسي أم دعوات مدفوعة الثمن؟"، وكالة أنباء الإعلام العراقي، ٢٠١٣/٢/١١، شوهده في ٢٠١٥/٢/١٩، على الرابط:

<http://al-iraqnews.net/new/political-analysis/89731.html>

٥١ خفاجي.

٥٢ الحرب العراقية الإيرانية، ودخول القوات العراقية الكويت والتحالف الدولي ضده، والأزمة في الجنوب والشمال العراقي، والعقوبات الاقتصادية الدولية، واحتلال العراق، وحلّ مؤسسات الدولة العراقية وانتشار الفوضى، والعنف الطائفي، والحرب على تنظيم القاعدة في العراق، وظهور تنظيم الدولة الإسلامية.

الاحتلال ومن معه من القوى السياسية العراقية، بنوا نظاماً يقوم على أسس فرعية غير وطنية، فُرِضَتْ فيه الطائفية السياسية، وارتبطت القوى السياسية العراقية فيه بمركبات خارجية.

الهوية السورية

نادرة هي الدراسات التي تناولت الهوية السورية وتكوينها؛ فغالباً ما اتجه الباحثون لدراسة نشوء القومية العربية في سورية في مدنها وأريافها. تناول الباحث الأميركي مايكل برفنس في كتابه عن الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥ "الثورة السورية الوطنية وتنامي القومية العربية" مسألة الهوية السورية العربية. ورأى أنَّ الثورة السورية، سمحت للسوريين بالحفاظ على ذواتهم الاجتماعية والثقافية المختلفة، لكنها ساعدتهم في النهاية على تخيل أنفسهم أمة واحدة تحت فكرة الأمة العربية السورية من خلال النظرة السلبية تجاه المُستعمر^(٥٧). ووصف التحاق دمشق بالثورة بأنه اتحاد غير مسبوق ما بين الريف والمدينة في سورية بناءً على علاقات اقتصادية، قد نشأت سابقاً بين العاصمة دمشق والجنوب السوري. وإذا ما تجاوزنا مسألة دور السيادة وهي قضية جوهرية في مراحل تشكُّل الدولة - الأمة، كون أنَّ برفنس يقرُّ بعدم وجودها أصلاً، فهو يرى أنَّ بالإمكان "إيجاد مجمل الهوية الوطنية من دون الفكرة الوحودية"، فإنه لا يمكن تجاوز شرط اختلاط السكان مع بعضهم البعض، بفعل تفكك الجماعة المحلية بسبب الهجرة من الريف إلى المدينة والجماعة المهنية الحرفية في المدينة في إقليم جغرافي، لم تكن حدوده واضحة حينها^(٥٨). وبعائنا أنَّ الهوية السورية لم تتشكَّل إلا مع الاستقلال عن المستعمر الفرنسي، فقد بدأ معه انفتاح المجتمعات الأهلية على بعضها في إطار جغرافي محدد وواضح، وزمن جديد يؤرخ لمرحلة تاريخية جديدة^(٥٩).

للطائفية الاجتماعية تاريخ حديث في سورية، يعود إلى أحداث العنف الطائفي في دمشق في عام ١٨٦٠ خلال فترة الاحتلال العثماني. ومن ثم اتبعت حكومة الاحتلال الفرنسي سياسات هوية طائفية

الصراع، فهو حالة مستديرة لها جذورها التاريخية، ولو كان المجتمع العراقي يشهد صراعاً مستديراً بين مكوناته الاجتماعية، لما تشكَّل العراق بالأصل، ولما كانت تعايشت مكوناته الاجتماعية طيلة العهود السابقة، ولما تشكَّلت فيه أحزاب سياسية علمانية وغير علمانية.

تشكَّل الميليشيات على أسس مذهبية، وهي من تقوم بالجرائم الطائفية، وعليه فهي تعبِّر عن قوى اجتماعية طائفية موجودة في العراق. لكن يجب الانتباه هنا إلى مسألة التمثيل. فلا يجوز عدَّ أيِّ فصيل عسكري أو قوة سياسية ممثلاً لمجموعة من المواطنين، ما هي بجماعة متجانسة ولا متماثلة في الآراء والأفكار، أو أنَّ لهم سلوكاً واحداً^(٥٥). فهل يمثل تنظيم الدولة الإسلامية مثلاً "السنة" في العراق (أهل بغداد والموصل والأنبار وديالى...؟) وهل تمثل عصابات أهل الحق "الشيعة" في العراق (أهل البصرة وبغداد وديالى...؟) إنَّ المجتمع العراقي هو مجتمع متعدد الأفكار والآراء والأيدولوجيات الطائفية وغير الطائفية. لكن الحاضر على الساحة السياسية هو القوى العراقية الطائفية، بينما تغيب أصوات عراقية أخرى، لها رؤية مختلفة عن مستقبل العراق.

تشير نتائج المؤشر العربي لعام ٢٠١١ إلى أنَّ العراق هو البلد العربي الثاني بعد لبنان والذي يرى مواطنوه ضرورة فصل الدين عن السياسة، إذ إنَّ ٤٧٪ يوافقون جداً على ذلك، و٢٧٪ يوافقون إلى حدٍ ما، ولم يعارضه إلا ٥٪ فقط^(٥٦). إنَّه مازق النخب السياسية العراقية التي تخضع للقوى الطائفية في توجهاتها وسياساتها، وفقاً لحساباتها السياسية والانتخابية الضيقة وارتباطاتها الإقليمية المذهبية.

إذاً، لا يمكن وصف المجتمع العراقي بالمجتمع الطائفي ولا توجد جماعة سياسية ممثلة لطائفة معينة، ولكن المشكلة تكمن في أنَّ

٥٥ وقفت الحكومة العراقية برئاسة نوري المالكي زعيم حزب الدعوة الشيعي إلى جانب النظام السياسي في سورية. فهل يمكن عدُّ هذا الموقف ممثلاً للعراقيين للشيعة مجملهم؟ تشير نتائج استطلاع المؤشر العربي لعام ٢٠١١ والذي يجريه المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات سنوياً، إلى أنَّ ٥٣٪ من المستجيبين العراقيين الشيعة يرون أنَّ الحلَّ الأمثل لحلَّ الأزمة السورية هو تغيير نظام الحكم في سورية في مقابل ٥٢٪ من العراقيين السنة. ويؤيد ٢٥٪ من العراقيين الشيعة تنحي الرئيس السوري بشار الأسد عن السلطة، بينما يؤيد ذلك ٧٢٪ من العراقيين السنة بوصفه أفضل حلَّ لإنهاء النزاع في سورية. أمَّا فكرة استخدام العنف للقضاء على الثورة فيؤيدنها ١٪ من العراقيين السنة و٤٪ من العراقيين الشيعة. لمزيد من التفاصيل انظر: محمد المصري، "اتجاهات الرأي العام في المشرق العربي نحو الأزمة السورية"، مجلة سياسات عربية، العدد ١، (آذار/مارس ٢٠١٣)، ص ١٣٤، ١٣٩.

٥٦ المؤشر العربي ٢٠١١، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ٢٠١٢/٣/١، ص ٧٠، شوهد في ٢٠١٥/٣/١، على الرابط:

<http://www.dohainstitute.org/file/Get/4cdb1658-588f-4c53-923d-08d6d4972dda.pdf>

٥٧ مايكل برفنس، الثورة السورية الوطنية وتنامي القومية العربية، وسام دودار (مترجم)، (بيروت: دار قدمس، ٢٠١٣)، ص ٥٢، ٢٧٣.

٥٨ عزمي بشارة، تقديم كتاب بندكت أندرسون، الجماعات المنخيلة: تأملات في أصل القومية وانتشارها، تاجر ديب (مترجم)، (بيروت/دمشق: دار قدمس، ٢٠٠٩)، ص ٣٣.

٥٩ للمزيد عن نشوء الهوية السورية انظر: نيروز غانم ساتيك، "الحالة الطائفية في الثورة السورية: المسارات والأنماط"، مجلة عمران، العدد ٥، (صيف ٢٠١٣)، ص ١١٠.

لنا أن المجازر الطائفية الكبرى، لم تقع إلا في المناطق المختلطة طائفياً التي تشهد عمليات عسكرية كبرى في إطار صيرورة تطور الصراع السوري، ومحكومة بأبعادها الاقتصادية والسياسية^(٦١).

إن أخطر ظاهرة على حالة الاختلاط السكاني، هي ظاهرة الميليشيات بمذاهبها وطوائفها المختلفة السورية، وبخاصة غير السورية منها التي تعرف نفسها على أسس مذهبية فقط، وتسلك سلوكاً طائفيًا انتقاميًا في المجتمعات التي توجد فيها، وتتعامل مع المواطن السوري وفقاً لمذهبه الديني بوصفه فرداً في جماعة تسلك سلوكاً واحداً. وهو ما يدفع إلى هجرة السوريين وتهجيرهم من مناطق سكنهم التي عاشوا فيها، والذي يفتح المجال لاحتمالات وسيناريوهات متعددة تخضع للحسابات والرؤى الإقليمية والدولية.

تنقسم القوى السورية الكردية إلى تكتلين رئيسين: المجلس الوطني الكردستاني - سورية ومقره في مدينة أربيل العراقية، ويطالب بفيدالية كردية في سورية على غرار كردستان العراق^(٦٢). وحزب الاتحاد الديمقراطي الكردي (جناح حزب العمال الكردستاني في سورية)، والذي شكّل ميليشيات أطلق عليها "قوات حماية الشعب الكردي"، سيطرت على مدنٍ وقرى ذات غالبية كردية في ريف حلب والحسكة. لكنهما يشتركان في تسمية المناطق الشمالية الشرقية في سورية والتي يسكنها سوريون من مكونات اجتماعية متعددة (أشوريين، وأرمن، وعرب، وأكراد، وسريان...) باسم "غرب كردستان"، أي أنها جزء (غرب) من كل (كردستان). وعلى الرغم من خلافاتهما السياسية على تمثيل الكرد في سورية، فقد أعلن حزب الاتحاد الديمقراطي في ١٢ تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠١٣ تشكيل مجلس حكم ذاتي انتقالي "لإدارة الشؤون الإدارية" في ثلاث مدن غالبية سكانها من السوريين الأكراد، هي: القامشلي، وكوباني، وعفرين. تنفصل هذه المدن عن بعضها من الناحية الديموغرافية في وجود مناطق وقرى

منظمة نحو عقدين ونيف، حوّلت فيها الطوائف والإثنيات إلى قوميات واعية بذاتها^(٦٣). لكن دولة الاستقلال السورية، وضعت ذلك الإرث الاستعماري وراءها، وعكست ما في المجتمع السوري من أيديولوجيات في إطار دولة وطنية علمانية. ومع تسلّم حزب البعث (القومي العربي) الحكم في سورية، واحتكاره السلطة منذ عام ١٩٦٣، أقصى الأيديولوجيات والتوجهات الأخرى في المجتمع السوري عن المشاركة السياسية، فحافظ على البنى الاجتماعية الطائفية والعشائرية والإثنية في سورية، أو أعاد إيقاظها، فظل التوتر الاجتماعي قائماً في المجتمع السوري، يعبر عن نفسه بأشكال مستترة أو ظاهرة أحياناً مع كل أزمة سياسية محلية. ولذلك، لم تنشأ الطائفية الاجتماعية أو النزعات الانفصالية القومية في سورية مع يوميات انتفاضة عام ٢٠١١ ومراحلها، لكنها جسّدت ذاتها في التعبير عن تراكمات تاريخية ذات أبعاد اقتصادية واجتماعية وسياسية.

”

إن أخطر ظاهرة على حالة الاختلاط السكاني، هي ظاهرة الميليشيات بمذاهبها وطوائفها المختلفة السورية، وبخاصة غير السورية منها التي تعرف نفسها على أسس مذهبية فقط، وتسلك سلوكاً طائفيًا انتقاميًا في المجتمعات التي توجد فيها، وتتعامل مع المواطن السوري وفقاً لمذهبه الديني

”

شهدت سورية على مدار السنوات الأربع الماضية عنفاً طائفيًا مريعاً في العديد من البلدات والقرى والأحياء السورية. ارتسمت فيها حدود الصراع العسكري على أسس مذهبية في مدينة حمص وريفها وريف حماه في المنطقة الوسطى من سورية. وعلى الرغم من وقوع عدة أماط من العنف الطائفي في ريف دمشق والساحل السوري، فقد بقيتا منطقتين مختلطين طائفيًا، إضافةً إلى العاصمة دمشق. وما زال أهالي هذه المناطق يتشابكون مع بعضهم البعض في علاقات اقتصادية معقدة ومتشابكة نسبياً، تختلف بين المدينة أو البلدة والأخرى. ومن خلال دراسة أحداث المجازر والجرائم الطائفية ووقائعها، فإنه يتبين

٦١ تستضيف مدينة اللاذقية أكثر من مليون سوري من محافظات إدلب وحلب، وكذلك مدينة السويداء تستضيف أعداداً كبيرة من اللاجئين السوريين من مدن درعا، ومازال الاختلاط الطائفي بأديانه وطوائفه المتعددة موجوداً في كل أنحاء سورية. وقد جرى ذكر الساحل السوري وحمص وحماة وريف دمشق فقط لأنها المناطق التي شهدت عنفاً طائفيًا واضحاً بين السوريين العلويين والسوريين السنة. وهي المناطق الدافعة أو المثبطة لفكرة تقسيم سورية على أسس مذهبية، انظر: "أبعاد العنف الطائفي في الساحل السوري"، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، كانون الثاني/يناير ٢٠١٤، شوهدي في ٢٠١٥/٣/١٠، على الرابط:

<http://www.dohainstitute.org/file/Get/697a17dc-d1aa-4de7-8c82-78119a6f5ce4.pdf>

٦٢ "لا بديل عن الفيدرالية"، المجلس الوطني الكردستاني - سوريا، شوهدي في ٢٠١٥/٣/٧، على الرابط:

<http://goo.gl/V19lks>

٦٣ قسمت فرنسا سورية إلى دويلات طائفية (علوية ودرزية وحكومة دمشق ووضعت الجزيرة العربية في نظام خاص)، انظر: ستيفن همسلي لونغريغ، سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي، بيار عقل (مترجم)، (بيروت: دار الحقيقة، د. ت).

بالضرورة إلى تغيير بنيتها الديموغرافية، وهو ما يهيئ لظهور جماعات سياسية ذات نزعات انفصالية، مدعومة ميليشاويًا، قد تحظى بدعم من قوى إقليمية ودولية، وتتحول إلى ممثل لجماعة معينة بفعل التعامل الدولي معها. بينما تغيب فاعلية قوى سياسية أخرى لها رؤية مختلفة عن مستقبل سورية والعراق، كونها لا تنظم ميليشيات، ولا تحظى بدعم دولي.

تدلّ المؤشرات الميدانية والسياسية في سورية والعراق على أنّ الأكراد بدأوا يستعيدون وحدتهم ووعيهم القومي^(٦٥)، وهم الطرف الوحيد في المشرق العربي الذي يقاتل على أسس قومية وعرقية. ما يسهّل إنشاء كيان كردي قابل للحياة على الصعيد المحلي، كونهم يمتلكون مقومات اقتصادية وسياسية وبشرية وعسكرية كبيرة. ومن دون الاعتراف الدولي لا تحظى الدول الجديدة بشرعية دولية، والذي يبدو سلسًا إلى حدٍ ما على الصعيد العالمي، لكنّه في غاية التعقيد على الصعيد الإقليمي.

أما عن إمكانية إنشاء كيانات طائفية في سورية والعراق، فمن غير المرجح نشوء هذه الكيانات في الظروف المحلية والدولية الحالية. فالعنف الطائفي ما هو إلا توترات اجتماعية نتيجة الخلل في توزيع الثروة والسلطة والاستبداد السياسي، لا تندرج ضمن النزعات الانفصالية، لكنّها قابلة للتحويل إلى قوميات طائفية بفعل التدخلات والرؤى الخارجية (الاستشراق الغربي، والدور الروسي الجديد ومسألة الأقليات، والمذهبية السياسية الإقليمية).

إنّ الاقتتال الطائفي في سورية والعراق، ليس انتصارًا للهوية الطائفية، بل هو تجسيد لفشلها في محاولة فرض نفسها هوية واحدة. ويتمثل ذلك بفشل أيّ من القوى في تقديم نفسها على أنّها الممثل الشرعي لجماعة قائمة بحدّ ذاتها. أمّا المشكلة فتكمن في القوى السياسية المحلية المتنافسة التابعة ثقافيًا وسياسيًا إلى قوى خارجية لها مصالحها الخاصة المتضاربة والمتصارعة في النظام الدولي. وهذا لا يعني أنّ القوى السياسية الطائفية ليس لها جمهورها، ولكن الفكرة أنّها ليست الوحيدة، أمّا المفقود فهو أصوات السوريين والعراقيين.

عربية، ما يصعب إقامة وحدة جغرافية بين هذه المدن على أسس إثنية^(٦٦). إلا أنّ ذلك يفتح المجال لحروب ونزاعات أهلية في الجزيرة السورية، بدأت تظهر إلى العلن بعد معركة كوباني، والتي ستترك أثرًا كبيرًا في تغيير بنيتها الديموغرافية.

لا توجد قوة سياسية أو اجتماعية سورية تطالب بإدارة إقليم جغرافي معيّن أو استقلاله على أسس طائفية. وما زال الصراع يدور حول من يحكم سورية^(٦٧). بمعنى أنّ الطائفية السياسية غير مطروحة بوصفها نظام حكم بالنسبة إلى السوريين. والقوى السياسية السورية الكردية وحدها، تطالب بإدارة إقليم ذاتي، تعدّه مؤقتًا، وهي مطالب مازالت صيرورة تطورها قيد التشكل.

النتائج

تسمح بنية النظام الدولي الحالي بدرجة كبيرة من التدخل الخارجي في المشرق العربي، إذ تسعى القوى الكبرى لتحقيق أكبر قدر ممكن من مصالحها الوطنية وضمان أمنها القومي، وذلك بسبب توافر عوامل داخلية محلية وهشاشة الدولة الوطنية في المشرق العربي. وبذلك تتشابك القضايا الداخلية مع المصالح الدولية. وتُصاغ على شكل مخرجاتٍ نتيجة التفاعل بين المدخلات الوافدة من البيئتين الداخلية والخارجية.

يتبين لنا من خلال العرض السابق أنّه كلّما ازداد دور القوى الدولية الصاعدة في بنية النظام الدولي، ازدادت احتمالات تقسيم العراق أو استكمال فدرلته، وصوغ نظام سياسي توافقي فرعي في سورية على أقلّ تقدير. وكذلك فإنّ تعدّد دور الفاعلين الإقليميين، سوف يؤدي إلى زيادة هذا الاحتمال. وذلك بسبب تضارب مصالحها الوطنية وصراعها على الموارد والأدوار في المشرق العربي.

أما على الصعيد المحلي، فإنّ امتداد النزاعات العسكرية أو صراع الميليشيات إلى المناطق التي لا تزال مختلطة سكانيًا، سوف يؤدي

٦٣ خورشيد دلي، "الإدارة الذاتية الكردية بين الانفصال والاستحقاق"، الجزيرة نت، ٢٠١٣/١٢/١، شوهدي في ٢٠١٥/٣/٧، على الرابط:

http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/2013/12/1/-الإدارة الذاتية-الكردية-بين-الانفصال-والاستحقاق

٦٤ يتهم النظام السياسي في سورية المعارضة السورية بأنّها تقود مشروع تقسيم سورية والفتن الطائفية، وكذلك بعض أطراف المعارضة تتهم النظام السوري بأنه يعمل على إقامة دولة علوية في الساحل السوري. لكنّها لا تعدو عن مناكفات سياسية ومحاولات تشويه صورة الآخر بالنسبة إليهم. فكلا الطرفين يقاتلان في جميع أنحاء سورية.

٦٥ خورشيد دلي، "المؤتمر القومي الكردستاني والحلم الكردي"، الجزيرة نت، ٢٠١٣/٨/١٠، شوهدي في ٢٠١٥/٣/١١، على الرابط:

http://goo.gl/k4BN4v